الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٤٦٣ — الثلاثاء ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٣٦٦ — ١١ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ — السنة التاسعة

دروس وعـــبر

من المفيد أن يقف الناس من الأحداث التى تنزل بهم بعد أن تنجاب عنهم غمرتها موقف المتدبر الذى يحلل أسبابها ويستعرض تطوراتها ويستعيد تجاربه فى مواجهتها ويرى ما أصاب فيه منها، وما أخطأ أو قصر، ومواضع التقصير، فإنه لا شك سيخرج من دراسته بنتائج تنفعه فى مستقبله وتزيد قوته فى ملاقاة أمثالها وخبرته فى معالجة ما قد يلاقيه من الحالات المماثلة.

وفى هذا الوباء الذى نزل بالكنانة، والذى شاء لطف الله أن تخف حدته، ويوشك إن شاء الله أن يزول أثره قريبا، وتطهر أرض الوادى من جراثيمه الخبيثة نهائيا — فى هذا الوباء وما كان من تصرفات فى مكافحته وما صحب ظهوره من ظروف وملابسات وما كشف عنه من وجوه نقص كثيرة، موضع للنظر والدرس.

فلعل أول ما يسترعى النظر أثر ذيوع أنباء الوباء، هذا الاهتمام البالغ الشامل الذى بلغ حد الذعر عند بعض الأفراد. هذا الاهتمام الذى لم يقف عند الدوائر الصحية المختصة، بل شمل دوائر الحكومة أجمعها، ولم يقف عند المناطق المصابة وما جاورها، بل جاوزها إلى كل جهات القطر، وامتد إلى كل فرد فى كل بلاد القطر، بل تجاوز حدود القطر إلى كل الأقطار القريبة والبعيدة. ولا عجب فى ذلك، فغريزة المحافظة على الحياة أقوى الغرائز فى النفس، ولا يكاد الناس يحسون خطرا قريبا يتهدد الحياة حتى تستيقظ فيهم تلك الغريزة ويهبوا لاتقاء هذا الخطر ودرء أضراره، ويتجهوا لمعاونة السلطات المختصة فى مكافحته.

ولا عجب فى أن تسارع الحكومة لحشد كل قواها لهذه المكافحة، وأن تستعين بكل ما يبذل فى سبيلها، وأن تتخذ من الإجراءات القوية السريعة ما يكفل تنفيذ خطة أهل الاختصاص فى حصر المرض والقضاء عليه، وأن يرضى الجميع بما يقتضيه ذلك من قيود تحد حرية تنقلهم، لأن سلامة المجموع مقدمة على كل شىء، وحفظ أرواحهم أهم وأولى من كل اعتبار.

وليس مجال أمثالنا الحكم على مبلغ إحكام الخطة التى وضعت للمكافحة، ودقة التدابير التى اتخذت، فهذا من شأن الخبيرين بتلك الأمور؛ ولكن يبدو مما نقل عن خبراء أجانب شهدوا تلك الإجراءات والتدابير عن قرب أن رجال الصحة العامة قد قاموا بواجبهم قياما حسنا، وأن ما فاتهم فى بداية ظهور الوباء بسبب ذهول المفاجأة قد تدورك

سريعا، وأن وسائل العزل والحصر والتفتيش والعلاج قد بلغت في الدور الأخير غاية ما كان يستطاع عمله في مثل تلك الظروف.

على أن موقف الشعب لم يكن في كثير من الأحوال مما يسهل على رجال الصحة القيام بمهمتهم. فقد كان القحط دافعا بالكثير إلى التهافت على أن يطعموا بالمصل الواقي مع بعدهم عن المناطق الموبوءة. ولما كانت كميات المصل التي تنتجها المعامل المصرية والتي ترد من الخارج محدودة، فقد كان تهافت هؤلاء على التطعيم حائلا دون التعجيل بتطعيم مخالطي المرضى والمجاورين لهم، وهم أولى الناس بأن تكون لهم في ذلك الأسبقية. ومع أن توفير المصل للجميع قد تيسر الآن، فإن كل ما يمكن أن نستفيده في المستقبل أن همة الناس وأنانيتهم يجب ألا تكون سببا في تقديم البعيدين عن الخطر على القريبين منه، وإلا تداعى النظام كله، وعجزت السلطات عن حصر الخطر واتقاء امتداده.

وكان موقف الشعب الريفي المسكين بسبب جهله وفقره وضعف إدراكه بقيمة الإجراءات الصحية من أكبر العوامل في استفحال الوباء فيه وكثرة ضحاياه. فهؤلاء الريفيون الجهلاء لم يدركوا قيمة حصر المرض وأخطار انتقال المخالطين، فلجئوا إلى شتى الحيل والوسائل للتخلص من الحصار والانتقال للجهات القريبة، فنشروا المرض، وهم كذلك غلب على كثير منهم الخوف من العزل فستروا مرضاهم ولم يبلغوا عنهم، وأدى بهم الحرص على دفن موتاهم وإجراء مراسم العزاء إلى توسيع شقة العدوى وانتشار الوباء الذي ذهب بكثير منهم. وبالغ البعض في مقاومة الإجراءات الصحية فتجمعوا للحيلولة بين السلطات وبين أداء واجبها. وإذا كان لنا ما نفيده من هذا الموقف فهو الشعور بفداحة إهمال هؤلاء المواطنين وحرمانهم من النور الذي يكفل لهم إدراك أبسط قواعد المحافظة على الحياة.

إن الجهل المستحكم التي يعانيها سواد هؤلاء الريفيين أصبحت عاملا من عوامل تأخر هذا الشعب وإلقائه بنفسه إلى التهلكة. وقد آن الأوان لاتخاذ خطوات عملية سريعة لتعليم هؤلاء الريفيين ما هو ضروري لهم بطريقة ما من الطرق العملية، ولو لم يكن ذلك عن طريق القراءة والكتابة.

وكشفت الكوليرا عن نقص كبير في حياة الريف، قد يكون من أكبر الأسباب لانتشار الأمراض، وهو سوء الموارد التي يستقون منها المياه. وقد تكلمنا كثيرا منذ سنوات عن ضرورة تدبير مياه شرب صالحة لسكان الريف، ولكن الحكومة ورجال الأشغال فيها يأبون إلا القيام بمشروعات مثالية، وهذه المشروعات تتطلب الملايين الكثيرة من الجنيهات، ولهذا ترك التفكير فيه. ولكن الأمر لا يحتمل البطء أكثر من ذلك، فإما أن توضع مشروعات أقل نفقة وإما أن تنفذ تلك المشروعات ولو فرضت على الجميع ضرائب استثنائية من أجلها.

وليس بمستغرب أن نروي حكايات عن بعض القائمين بأمر المكافحة أو السلطات التي تتولى الحصار تمس شعورهم بالواجب العام؛ ففي كل شعب وكل طبقة أناس تغلب عليهم الأنانية ويقل إحساسهم العام، ولكن هؤلاء بحمد الله قلة. وقد اتخذت عقوبات شديدة لمن تبين تقصيرهم.

بقي أن نلاحظ أن هذه الإجراءات التي اقتضتها حالة طارئة والتي امتازت بالسرعة والدقة والتعاون وتعبئة كل القوى، توحي إلينا أن نفكر في الإفادة منها في علاج شئوننا الكبرى، بمثل تلك الطريقة.

إن نشر التعليم وتحسين الأحوال الصحية وترقية

الشئون الاقتصادية وتقوية الجيش ، كلها أمور تبدو خطرا إن لم يكن عاجلا ظاهرا كزوال الكوليرا فهو خطر دائم يبدو في كثير من الظروف أشد الحاجة لمقاومته ؟

فلماذا نسير في مكافحة الخطر الحق سير السلحفاة ؟

ولماذا لا نستفيد من هذه التجربة في وضع خطط منظمة قوية عاجلة لتحقيق هذه الأمور التي ستدرأ عنا في كل وقت أخطارا كثيرة ؟

لماذا لا تجند قوى الاختصاصيين لرسم سياسة اقتصادية عامة تزيد في إنتاجنا وتساعد على استغلال كل موارد الثروة والقوة لدينا ، ويكون هدفها اكتفاؤنا بأنفسنا ، فلا نكون تحت رحمة غيرنا ، ولا نشكو افتقارنا إلى عملات أجنبية لاستيراد ما نستطيع إنتاجه بأنفسنا ، ولماذا لا توضع سياسة اقتصادية شاملة توفر لنا الصناعات الضرورية والتوسع الزراعي الممكن وتكفل لكل يد عاملة في البلاد أن تجد موردا للعمل ؟

ولماذا لا نسير في نشر التعليم وترقيته بخطى أسرع ؟

ولماذا لا تنفذ المشروعات العمرانية الواسعة التي تكفل تحسين الريف وتوفير الحياة الصالحة للريفيين ؟

ولماذا لا نبدأ زيادة جيوشنا وإنشاء ما يمدها بأسلحتها وذخائرها .

كل هذا يبدو أمرا غير يسير متى أخضعناه للطرق الحكومية العادية ، ولكن الأمر يتغير إذا جعلناه شأنا قوميا تحشد كل قوى البلاد ومواردها لتحقيقه .

(. . .)

إلى من يهمهم من أهل القطر :

الطابق الأعلى

سأصور لك أيها القارئ الكريم صورة صادقة ليس فيها تهويل ولا تمويه . هذا بيت تقادم عليه الزمن ، وجرت عليه الحوادث عاما بعد عام ، حتى هدمت قوته ، فتساقط ما كان يزين جدرانه من الطلاء البديع ، وراحت جدرانه تتهدم قطعة بعد قطعة ، وضربت الأرضة في أساسه حتى مشت في بنائه ، وظهرت على وجهه بقعا كالحة ، وزاد الزمان عدوانا على ذلك البيت المسكين ، فأرسل عليه من السماء صاعقة بعد صاعقة دكت منه ركنا وحركت ركنا . فجعلته كالإنسان المشلول ، يعلو منه جانب ، ويهبط جانب . وظل هذا البيت المسكين صاحب يملكه إرثا من آبائه ، يؤجره لساكن بعد ساكن ، ويجمع الأجرة كلها في جيبه ، ويبخل عليه بالقرش الواحد ينفقه عليه لإصلاح من ...

ثم مات ذلك المالك ، وورث البيت ولده ، وكان يعيش بجواره ، فرأى أن من العار عليه أن يبقى بيته على صورته المتهدمة القبيحة ، فعزم على أن يقوم بتحسينه وتجميله ، ليكون في نظر الناس جديرا بمجد صاحبه ، وهو من أعيان الناس وأكابرهم ، وما كان ينبغي لمثله إلا أن يكون بيته عظيما مثله . ولكنه بدل أن يهدمه ويزيل أنقاضه ويقيم في أرضه عمارة جديدة ، فكر في خدعة بارعة . فقد أتى بمهرة الدهانين ، وأمرهم أن يطلوا على داره أبهى الألوان ، وأن يزخرفوه بأحسن الزخارف . ولم يبخل عليهم بما طلبوا من المال ، فما هي إلا أسابيع قليلة حتى كان بيته يبدو كالعروس .

ولكن الدهان يا سيدي القارئ العزيز أنواع ، فمن الشابة التي لا تحتاج إلى الدهان ، فإذا دهنت بالأصباغ تلألأت كأزهار الجنان . ومنهن العجوز التي تستطيع أن تبهر الأنظار بأدهانها في ليلة الجلوة ، حتى إذا ما خلت إلى نفسها في الصباح تأسى قلبها في أعماق صدرها حسرة عما يخبئه المستقبل لها . هكذا صار البيت مثل هذه العروس العجوز في ليلة جلوتها .

ولكن صاحب البيت نظر إلى بهاء ألوانه ، وامتلأ قلبه كبرا وسرورا ، ثم لمع به الغرور أن حدثته نفسه ببناء طابق أعلى يتخذه لنفسه مسكنا . فجمع أمهر البنائين ، وأمرهم أن يقيموا له فوق الدار طابقا جديدا فخما . ولم يبخل عليهم بما طلبوا من المال ؛ فما هي إلا أسابيع حتى كان الطابق الجديد يتلألأ من الطلاء فوق رأس الدار . وذهب السيد الثرى بأهله وخدمه وحشمه إلى المنزل الجديد ليشرف منه على حياة سعيدة جديدة .

وذات يوم صحا أهل البيت جميعا على صوت فرقعة هائلة ، فهبوا من نومهم مذعورين ، فإذا البيت قد خر بأعلاه وأسفله ، وردم جميع من فيه بحطامه .

هذه صورة صادقة أردت بها أن أبين للقارئ الكريم معنى يدور في نفسي كلما تأملت أحوال هذه البلاد العزيزة . هذا الوطن الذي ورثناه من آبائنا منذ أجيال لا نستطيع أن نحددها . هذا الوطن الذي يرجع تاريخه إلى ألوف وألوف من السنين ، تعرض في أثنائها لحوادث الدهر التي لم ترفق به . فقد طالما أغار عليه الأعداء ، وأذلوا أهله ، وحطموا عمرانه ، ولم يتورعوا من إيقاع أفدح المظالم به . وكان هؤلاء يقيمون في ربوعه سادة لا يبالون إلا بشيء واحد ، وهو أن يسخروا أهله في العمل لكي يحصدوا لأنفسهم كل خيراته . كانوا لا يحسون لأهله رحمة ، ولا يخطر في قلوبهم أن يتركوا لهم من خيرات الأرض ما يصلحون به ما تهدم من بيوتهم ، ولا ما ترمم من طرقهم ، ولا ما أحرق من أثاث مساكنهم . كانوا كما قلت لا يبالون إلا بما يأخذون لكي يشبعوا نهم السادة الأعراب الذين جاءوا إلى البلاد فاتحين بحكم السيف ،

ورثنا نحن هذا الوطن الذي طالما شهد من أحداث الدهر ما جعله حقلا من أرض خصبة يهجم عليها شعب محطم يحاول ما استطاع أن يجد لنفسه مأوى من الطين ويحاول ما استطاع أن يختلس قطعة من خيرات الأرض يمسك بها رمقه .

ورثنا نحن هذا الوطن منذ نحو قرن ونصف عندما بدأت مصر تعود إلى الوعي وتعرف نفسها وجوداً بفضل الحركة الوطنية التي أخذت في الظهور في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم تمت وتجسمت منذ عهد الرجل العظيم محمد علي باشا ، حتى آل ملك الوطن إلينا نحن أبناء هذا الجيل .

ورثنا نحن هذا الوطن ولكنا لم نقف طويلا لنفكر في أمر ذلك الميراث ، ولا في خير الوسائل للانتفاع به ، بل فعلنا ما فعله صاحبنا الذي ورث البيت المتهدم عن أبيه ، ورأى أن أباه ترك له مالا كثيرا فأحب أن يبني لنفسه طابقا جديدا يليق به . نعم كنا مثل ذلك الوارث المسكين ، فاكتفينا بالدهان الظاهر الذي تحمل منه واجهات المدن العامرة ، وفسحنا ميادين النشاط الاقتصادي لأجوبة الأموال من كل أطراف الأرض ، وكثير من الشركات التجارية فتضخمت أرباحها وزادت ثروة أصحاب الرواتب من رجال الأعمال والشركات فجمعوا الملايين وبنوا العمائر ، وازدحمت الشوارع بالسيارات الفخمة وصارت مواسم القطر تباهي مواسم العالم الكبرى في مغانيها وتبرجها وزخرفها . ولكن أين أساس كل هذا ؟ أساسه هو هذا البناء القديم المتهدم الذي لم نصنع له شيئا سوى أن دهنا وجهه بالطلاء اللامع حتى صار أمره يشبه العروس العجوز في ليلة جلوتها .

فلو كشفنا هذا الطلاء قليلا لظهر لنا من تحته الخطر الجاثم فاغراً فاه يصيح بنا منذرا : لو خرجنا من هذه الشوارع الفخمة التي تموج بما فيها من سيارات ضخمة ومن هذه المواسم التي تباهي أوربا بحفلاتها وعماراتها وحركتها الصاخبة ، لو خرجنا من هذه الأسواق العامرة التي تسع فيها بضاعة كل لذات الأرض ، ومن هذه المصانع الشامخة التي تعود على أصحابها كل عام بالملايين من الجنيهات ربحا (حلالا) ، لو خرجنا من كل هذا إلى الريف المسكين — إلى الدور الأسفل من البناء ، لعرفنا أننا نعيش في الطابق الأعلى فوق جدار يريد أن ينقض .

ولقد آن لنا أن نكف عن خداع أنفسنا بأننا قطعة من أوربا — أو بأننا أكبر أقطار هذا الشرق الأدنى . آن لنا أن نعرف أن هذه العظمة التي نجدها تحتاج إلى أن يدعمها أساس يستطيع أن ينهض بها ، وإن هذه الأعراض التي تتوالى علينا قد أظهرت لنا أن الشعب الأكبر في هذه البلاد لا يعيش — نعم إنه لا يعيش — إنه لا يزال كما تركه الأعداء الغاصبون منذ آلاف السنين ، يهيم على هذه الأرض ليعمل ويحاول أن يجد لنفسه مسكنا من طين الأرض ، ويحاول أن يختلس له لقمة يمسك بها رمقه ورمق عياله . إن هذا الشعب لا يزال كما كان يعيش في وقت الذلة [illegible] ، في حين أننا الآن منه [illegible] ورثة هذا الشعب وهو من أرومتنا ؟ وإذا كان الغاصبون الأعداء قد قنعوا فيما مضى بأن يتمتعوا بسخره ، ويلتمسوا محصول كده فإننا جديرون بأن نشعر نحو هذا الشعور لأننا منه وهو منا .

أرأيت إذا أكلت أنت أيها القارئ الرز حتى شبعت وتركت أخاك الشقيق جائعا يتلوى في أسفل الدار ، أيهنأ لك طعامك ؟ كلا بل أكبر ظني أن تقول لنفسك : « بئس الطعام إذا لم أشارك أخي طعامي » .

لقد آن لنا أن نأخذ شيئاً من عندهم النقود به على من ليس عندهم . وقد آن لنا أن نعرف أن الحياة المدنية الحديثة لا يمكن أن تقوم على أنانية مجموعة قليلة من المحظوظين .

الدنيا قائمة بأصحاب البصائر . وقد يكون الإنسان النهم [illegible] نفسه . وإن سعادة الناس تزداد إذا أحسوا أن من حولهم لا يتضورون جوعا . أيهنأ لك الطعام أيها القارئ ؟

صرعى الوهم

من النوادر الصغيرة ذات المغزى الكبير ما روى من أن اثنين من أهل فرنسا وقع بينهما ما اعتبره كل واحد منهما ماساً بكرامته . فكان لا بد لهما أن يغسلا الإهانة على طريقتهما الخاصة التي كانت سائدة في فرنسا في القرن الماضي وهي طريقة (المبارزة) . ولم يكن لأحد منهما عهد سابق بالسلاح ولا باستعماله . ولكنها التقاليد دفعت أحدهما إلى طلب المبارزة ، وفرضت على الآخر أن يقبل التحدي . ولما عرض أمر السلاح الذي تجرى به المبارزة وقع الاختيار على المسدس . وكان الباعث على اختياره أنه قد لا يحتاج لخبرة خاصة . وأن كل ما يطالب إلى حامله أن يشد على زناده فتنطلق قذيفته ، وليس على الله بعد ذلك بعزيز أن يصيب المقذوف قلب الهدف !

وكان صاحبانا — فضلا عن جهلهما بالسلاح — من الرعاديد الذين يخشون الموت ويكرهون القتال . ولا يطيقون رؤية المقاتلين . فكانت محنة لهما أية محنة ، أن يقوما هما بحمل السلاح — وإطلاق النار — والاستهداف للضرب والطعن ... والموت !

ومرت الأيام ثقالا . واقتربت الساعة التي تم الاتفاق على اللقاء فيها . وتحلل الفريقان ، وسار كل واحد منهما إلى الساحة الموعودة وسط شهوده يتظاهر بالعزم والبأس ، ويحمل في جوفه قلبا خفاقا متهالكا يكاد يذوب من الهلع ولو لم تمسسه نار !

ووقف كل واحد منهما في طرف من طرفى الساحة يواجه خصمه والمسدس في قبضة يده كأنه جمرة حية لا قطعة من الحديد البارد . ولم يبق لواحد منهما أي أمل في الحياة إلا أن يخطئه غريمه فلا تصيبه قذيفته . ولكن الخوف والوهم ألقى في روع كل واحد أنه هو الهالك لا محالة في هذا الصراع الفظيع !

وتأهب الرجلان لإطلاق النار . ووقفا متخاذلين ينتظران إشارة الحكم . وأخيرا صدرت هذه الإشارة فدوت في الفضاء طلقتان . سقط الخصمان على أثرهما صريعين !

وأسرع إليهما الشهود والطبيب لإسعاف من لا يزال به رمق ، ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أشلاء المقاتلين ، ولكن المأساة يا للأسف وقعت كاملة ، فقد كان البطلان في عداد الأموات ولم يعد في الأمر مجال للإسعاف ولا الإنقاذ ! ووقع في روع الحاضرين أن قذيفة كل واحد لا بد قد استقرت في قلب غريمه فصرعته . وأخذ الطبيب في فحص أول البطلين فوجد القلب سليما لم يصبه سوء . فانتقل إلى الدماغ من الناحية تحت إلى المخ فهتكته ، فإذا هو أمام رأس نظيف غير مثقوب ولا دام . فأخذ في تقليب الجثة ذات اليمين وذات الشمال وهو يلتمس المكان الذي اتخذ منه المقذوف ، فلم يجد أثرا ، لا في ملابس القتيل ولا في جثمانه ، يدل على أن المقذوف قد مسه من قريب أو من بعيد ...

فترك الطبيب تلك الضحية الأولى وانتقل إلى الثانية ، فكان حظها مثل أختها حذوك النعل بالنعل . لا جراح ولا نزف ولا أثر لأية إصابة خارجية .....

وأخيرا انجلى الأمر . ووضح الغامض من أمر هذين

العزيز إذا رأيت فقيرا ينظر إلى طعامك بعين ملؤها الجوع ؟ إنك بلا شك تدفع عنه هناك بلقمة من طعامك . أفلا ينبغي أن يعلم المصريون في هذه البلاد أن هناك من لا يجد القوت مع كل كده ؟

لقد آن لنا أن نفكر جديا فيما يجب علينا أن نعمله نحو هذا التراث الذي ورثناه من آبائنا قبل أن نهب من نومنا ذات ليلة على صوت فرقعة هائلة ، ونجد أنفسنا قد انطوينا جميعا تحت الأنقاض .

محمد فريد أبو حديد

السيدتين . فقد سقط كل منهما ميتاً بمجرد سماع طلقة زميله بعد أن تهيأ هو للموت ووطن نفسه عليه وآمن بوقوعه ، وأخلص في إيمان بحلول الكارثة إذا ما انطلقت النار ! ولم تكن النار هي التي صرعته ، ولكن الذي صرعه هو الوهم !

* * *

والذي أذكرني بهذه الظاهرة ما سمعته منذ أيام من أن عاملا مسكينا شاهد زميلا له وقد أخذه القيء والإسهال فجأة ، فأدرك أنها مسة من هذا الوباء الخبيث الذي نشكوه في هذه الأيام . وأيقن التعس أن الموجة التي جرفت صاحبه في طريقها لا بد أنها ستقتلعه من قواعده ؛ ومن يكون هو أمام هذا التيار الجارف الكاسح الذي تعد ضحاياه كل يوم بالألوف ، والذي لا يمر بوسط إلا أتى على كل من فيه . أو لم ترو الصحف عنه أنه هو (الهواء الأصفر) الذي يمر الرجل في يومه فيتركه جثة هامدة في غده ؟! وأحس الرجل الغثيان ... ولم يلبث أن أتى ما في جوفه ، فتبين له صدق رأيه وحقق واقع الأمر ما جرى في الخيال ، ثم [illegible] عن بطنه ... فلما نقل إلى المستشفى لم ينتظر نتيجة التحليل لسبق الحوادث فقضى نحبه قبل أن يأتيه البشير بأن التحليل أثبت أن (عينته) سلبية ؛ وأن المسة التي أصابته لم تكن لها صلة (بالكوليرا) ولكنها كانت مسة عصبية فعل لها جسمه تحت تأثير الخوف والوهم والإيحاء الخبيث !! ذهب هو الآخر صريعا من صرعى الوهم !

* * *

ومن عجيب أمر هذه الظاهرة أنها تكاد تكون عامة شاملة — وقلّ بين الناس من لا يخضع لسلطانها . غير أنها أفتك ببعض الناس منها ببعض . فإن في الناس من إذا مسه السوء هلع — ومنهم من إذا حلت به المصيبة ثبتت [illegible] وقاوم ودفع . وما زلت أذكر ما حييت كيف ذوى زميل لي [illegible] في شرخ الشباب وميعة الصبا ؛ لأنه وقع تحت تأثير وهم باطل بأنه مصاب بمرض خبيث في المرارة ... لم يقل له فلان طبيب ، ولا أثبتته نتيجة تحليل . ولكنه هو استمع لأحاديث الناس وتطوع (لتشخيص) داء لا مبرر له ولا خبرة له فيه . وقرأ قليلا ولكنه توسع في التطبيق . وعبثاً حاول أهله أن يصرفوه عن هذا الخاطر . وعبثاً حاول أطباؤه أن يقنعوه بحقيقة حاله . ولكنهم كانوا جميعا عنده من المنافقين الكاذبين الذين يعملون على خداعه عن مرضه القتال .. يقولون له إن شكواه من بطنه لأنه كان يسرف في طعامه ، وإن شيئاً من الحمية كفيل بأن يشفيه . ولكنه هو يضع إصبعه على طرف كبده ويقول لهم : هاهنا أحس بالداء ، فلا حيلة لي في إنكار ما تقولون ما دمتم أنتم تحدسون وأنا وحدي الذي أحس ما لا تحسون !

وقلت له ذات يوم : سائر أطباءك أيها ، فإن تحسنت شكواك رحمك وكانوا من الصادقين . وإلا فقد كذبوا وكنت أنت من الصادقين . وكأنما هداه الله لأن يأخذ بمشورتي المتقدمة لإرشادات أطبائه ... ولم يلبث أن تحسنت حاله وعادت إليه ثقته بنفسه وبدا كأنه نصل من مرضه ، وعاودته صحته كما كانت . وابتسم للحياة من جديد . وكان احتفاؤه بهذه النتيجة السعيدة أن دعاني لأتناول معه الغداء . فلبيت دعوته وجلست بجانبه آكل وأراه وهو يتناول مما يضعه الخادم أمامنا من مختلف الألوان والأصناف . فراعني إقباله على الطعام ، وكثرة ما أودعه منه في بطنه . وسرني أن أراه على هذه الحال ، وأنا أحسب أن جسمه الضخم إنما يسترد في هذه الصورة بعض ما بذله في أيام الشدة الماضية ، ولم أكن أدري أن هذا النهم سيودي به بعد قليل . فقد عاوده الألم بعد أسابيع ، ولست أدري ما الذي ألقى في روعه أن هذه نكسة سوف يكون لها ما بعدها . وأنه يحس أنه لا قبل له في هذه المرة بالمقاومة . ورأيته يستسلم لدائه ويستعصي على أطبائه أكثر مما فعل في المرة الأولى . وانقطعت مدة عن أن أراه . وسألت عنه فقيل لي : إنه يسير من سيئ إلى أسوأ . وربما

أنا وبعض إخواني نقلب وجوه الرأي لنصل إلى حل نخلصه به من تلك الهوة التي ألقى بنفسه فيها ونستخلصه من تلك العقيدة الوهمية التي تسلطت عليه فوجئنا بنعيه منشوراً في صحف الصباح. فرأينا فيه مثالا لما يستطيع أن يفعله الوهم الباطل بفريسته. إذ هو الذي تولى بنفسه خلق مقدماته ورسم لها طريقها، وحدد لها نتائجها. ثم عمل من حيث لا يشعر على تنفيذ تلك الخطة القاتلة كأنها القدر المقدور الذي لا حيلة له فيه ولا سلطان له على دفعه.

* * *

وقد يخيل لمن يسمع هذا الكلام أن المقصود به هو أن الإنسان حياته في يده، إن شاء عاش وإن شاء مات. ومن الطبيعي أن هذا المعنى لا يمكن أن يقول به عاقل. فالحياة الدنيا إلى زوال مهما طال بصاحبها الأجل. ولكنها في كل أطوارها تسير طبقا لقوانين ثابتة عادلة، تؤدي مقدماتها إلى نتائجها المحتومة. فإذا كان من هذه المقدمات الاستسلام واليأس وضياع الثقة بالنفس وفقدان الإيمان بقوة الإرادة، كانت النتيجة اللازمة سرعة الانهيار وخسران المعركة في جولتها الأولى. وأهل هذا الجيل لا يمكن أن يكونوا قد نسوا أن أمة من أمم هذه الأرض اشتبكت منذ سنوات في صراع رهيب كان خصمها قد تهيأ له منذ زمان وحدته هي، وليس لها من العتاد والاستعداد ما يكفي للدفاع فضلا عن الهجوم. ومع ذلك فإنها اعتصمت باليقين واستمسكت بالصبر، وآمنت بالنجاح والنصر. فتماسكت مدنها وهي تحت نيران عدوها وبثت ألغامها حول خصمها وسلطت عليه طيورها، وأحاطته بأذرعها الأخطبوطية، وهو مشغول بدكها على رأسها. وانتهت المعركة آخر الأمر بنصرها هي وبما يشبه أن يكون زوال خصمها من الوجود.

* * *

ومن الناس الذين نعرفهم من اتخذ لنفسه مثل هذه الخطة في حياته. فهو يؤمن بالبقاء إيمانا شديدا، ولا يفكر في الموت، بل أكاد أقول إنه لا يعرف الموت إلا بالقياس إلى غيره من الناس. أما هو فإنه لا يزال يعتزم البقاء، ولا يشغل باله إلا بما سيعمله في غده وفي الأسبوع القادم وفي الشهر التالي، وفي العام الجديد. وهو بذلك يشغل نفسه عن الموت فيبقى، وكأنه يشغل الموت عن نفسه فيعيش!

كان لنا صاحب أصابه (السكر) ومن البادىء الأولية التي لا تخفى على من يعرف هذا المرض ومن لا يعرفه أن من ابتلى به فقد حرمت عليه الحلوى وما يدخل السكر في صنعه من ألوان الطعام. ولكن صاحبنا لم تكن تخلو وجبة من وجبات طعامه من مقدار كبير من (الحلاوة الطحينية) يأكلها على أنها علاج لحالته. وكانت نظريته في ذلك أنه ما دامت أجهزته تفرز السكر من طعامه ولا تحتفظ به فليمدها بجرعات كبيرة من السكر ليذهب أكثره — بغير تمثيل — ولكن ليبقى ولو أقله فيها لينعشه حسبه. وكانت النتيجة أن وقعت الكارثة التي توقعها أطباؤه فظهرت كل مضاعفات المرض: فتورمت قدماه، وتفجرت مفاصل ساقيه وسرى الانتفاخ من نحو أسفل بطنه — كل ذلك وهو لا يغير شيئا من نظام حياته. فهو يلعب الورق كل مساء مع أصحابه حتى منتصف الليل، ويأكل من طيبات ما يقدمه لضيوفه. ولا يزال يستدعي الطبيب أثر الطبيب ويقوم بالتحليل أثر التحليل وتتوالى التقريرات، وتجمع نتائج التحليل على أنه سائر إلى النهاية المحتومة في شهور أو أسابيع، كما كان يسر إلينا بذلك الطبيب؛ وهو مع ذلك لا يشغله إلا المستقبل وما سوف يصنع فيه بعد أن تعود صحته وينهض من فراشه. وإني لا أنسى ذلك اليوم الذي ظن فيه أنه قد ساءت حاله كما لم تكن قد ساءت من قبل. فهرعت إليه ومعي طبيب جديد لم يكن قد عاده قبل ذلك. وكنت قد سمعت عنه أنه الخبير الذي لا يخطئ في تشخيص هذا الداء وفي علاجه. فلما دخلت عليه وقدمت إليه الطبيب الذي معي

رحب به وقال : إنه كان قد سمع عنه وفكر في استدعائه . ولذلك لقيه مستبشراً . ثم أكب الطبيب عليه يفحصه ولم يترك جارحة فيه إلا خبرها وعرف مبلغ كفايتها في أداء عملها ، ثم نهض عنه واختلى في ليلومي على أني استدعيته إلى مثل هذه الحالة التي تعبر أنها في دورها الأخير . ولما استفسرته عما وجد قال لي في استنكار :

— ماذا تريدني أن أجد ؟ إني أعجب لصاحبك هذا كيف يعيش !

قلت : وهل لم يبد لك أمل في تحسين حالته ؟

قال : إن خير ما يتمناه الإنسان لصاحبك أن لا يطول بقاؤه حتى لا يطول عذابه .

إن الكبد معطلة . والكليتين لا تعملان . والمثانة يملؤها الصديد . والصدر يعوم في لجة من ماء الاستسقاء ، والقلب أضعف من أن يدير الدورة الدموية ! فماذا تريد من الطب أن يعمله لواجهة مثل هذه الحالة ؟

وتركني الطبيب ومضى .

ودخلت على صاحبي وأنا واجم ، ولعله لمح آثار وجومي بادية على ملامحي . وقد خذلني في اصطناع شيء من مظاهر الاطمئنان . فابتدرني بقوله :

— يظهر أن صاحبك كفئية جاءته . فدعنا منه ! أتدري علام استقر عزمي ؟ قلت : خيراً .

قال : لم يبق على دخول الصيف إلا شهران أو ثلاثة . فإذا كنت ما تزال على عادتك من السفر إلى أوربا كل صيف فإني سأسافر هذا الصيف معك !

فوالهِ هذا الخيال الواسع الذي يسبح فيه هذا المسكين ، وهذه الآمال العريضة التي يشغل نفسه بتشييد قصورها ، وهي لا تقوم إلا على أساس من أوهى الرمال ...

ولكنه في تشبثه بالحياة لم تتخل عنه الحياة . وفي تجاهله الموت لم يعرف الموت طريقه إليه . وعاش بعد ذلك زمناً طويلاً — عاش أولاً تلك الشهور الثلاثة التي اعتزم بعدها أن يسافر إلى أوربا . ولما حل الصيف سافر كما كان يريد أن يسافر . وعاد من أوربا وهو أحسن حالاً . كان تحسنه قليلاً ، ولكنه كان تحسناً على كل حال . وكان من بين مشروعاته التي تشغل تفكيره ، وتحجب عنه خواطر العجز والزمانة والموت ، أنه كان يريد أن يبني لنفسه داراً أنيقة في ضاحية من ضواحي القاهرة . فكان لا يفكر إلا في (الفارنيه) (والبانيو) وأدوات البناء . ولا يشغل نفسه إلا بعقابة النجارين والحدادين (وتصميم) الأثاث الذي يليق لشكل حجرة ويتفق مع ذوق كل ركن ، وكان في ذلك واسع الخيال إلى أبعد الحدود ؛ فهو يريد أن يصنع في (الصالون) حوضاً يعتزم أن يجمع فيه من أصناف السمك كل غريب في لونه أو في تكوينه ، وهو ينتوي أن يقيم في الحديقة قفصاً كبير الحجم لا تحس العصافير التي تعيش فيه أنها في أسر أو أنها فقدت شيئاً من حريتها ..

وفي هذه الأجواء الطلقة التي استطاع أن يحلق فيها صاحبنا بخياله ، وفي هذا الشوق البعيد إلى المستقبل الماثل الذي كان ينطوي عليه من تفاؤله وقوة عزيمته ، استطاع هذا الصديق أن يراوغ الموت نفسه حقبة طويلة من الزمن ، وأن يعيش سعيداً إلى آخر لحظة من حياته .

والعبرة من كل هذا الحديث أن يذكر الإنسان دائماً أن الحياة نضال وأنها فن ، وأن سعادة المرء فيها أو شقاءه إنما يكون من صنع يده هو إلى حد كبير . فمن اختار أن يحيا حياة سلبية ، وألقى بنفسه في خضم الحياة ، ثم تركها تعبث كيفما اتفق بكيانه مثله كمثل الجثة التي تلقى فوق تيار الماء ، فمن خليق أن تنهار بكل صخرة في الطريق ، وحرية أن تحطم عند أول منعطف يلاقيه .

أما المرء الناجح فإنه صاحب الإرادة الذي يؤمن بنفسه ويستمد من هذا الإيمان قوة يغالب بها ما يعترض طريقه من صعاب . فيتغلب بها ... حتى على المرض ، ويكافح بها ... حتى ملائكة الموت .

حسين مجمول

٢ - الجامعة العربية

والحركة القومية

ما هو موقف الجامعة العربية من الحركة القومية ؟ هناك اتفاق عام بين القوميين العرب بأن الجامعة ضرورية ، ولكن ليس هناك إجماع تام فيما إذا كانت الجامعة تمثل خير الوسائل لبلوغ الهدف المنشود .

وإن هناك ثلاثة آراء فيما يتعلق بالشكل الحالي للجامعة العربية : وأصحاب الرأي الأول يصرون على أننا بإقرار السلطة التامة للدول الأعضاء جعلنا الجامعة تميل إلى حماية المصالح الخاصة ، وبذلك تبلور الانقسامات السياسية الحالية في نظام مكين وأثبت أساس اتحاد سيرضي كثيراً من العرب ويقنعهم أنهم قد بلغوا الهدف . وأصحاب هذه المدرسة يفضلون أن يقام في الحال اتحاد من الدول العربية ، بل ويندفعون إلى إنشاء حتى دولة عربية .

والجماعة الثانية تقول أنه يجب إنشاء اتحاد أقوى من هذا الاتحاد الذي حققته الجامعة ، وإذا تعذر إنشاء اتحاد كهذا يضم كافة الدول العربية ، فيجب إقامة اتحاد يضم تلك الدول التي لها رغبة بالتنازل عن سيادتها ، ومن المتفق عليه أن الدولتين اللتين لهما هذا الاستعداد هما العراق وسوريا .

والفرقة الثالثة ، وربما كانت أكبر الفرق ، تعتقد بأن انضمام كل الدول المستقلة إلى الجامعة بكونها مركزاً دولياً تزيد فوائده على النواقص الأخرى ، وهذه الفرقة ترى أنه منذ أن أنشئت الجامعة بوضعها الحالي لم يكن هناك مجال كاف لإحداث تغيير أساسي ، بيد أن إمكانياتها الموجودة يجب أن تستغل إلى أقصى حدود الاستغلال .

إلا أن القول الفصل في الموضوع أن الجامعة كما هي الآن تمثل انتصار المعتدلين من الوطنيين العرب الذين يرون أنه لا يمكن في الوقت الحاضر تأسيس دولة عربية واحدة ، وأن هذه الدولة يمكن أن يجيء أوانها فقط عند انحلال سيادة الدول الأعضاء تدريجياً ومع الزمن . وهي أيضاً تمثل انتصار الفكرة العلمانية الحرة في التفكير العربي . فالجامعة تتهم أحياناً من قبل مريدي السوء بأنها رجعية متعصبة وذات روح إسلامية . ولكن اختبار أعمال الجامعة وأعمال الشخصيات التي تسيرها يدحض تماماً أمثال هذه التخرصات . إن منشئي الجامعة من الرجال الذين عاشوا بين تقاليد القرن التاسع عشر الحرة ، لا بين تقاليد الحركة الإسلامية التي فقدت منذ زمن طويل قوتها المؤثرة على السياسيين العرب ، إذا ما بقيت لها بعض هذه القوة إلى اليوم فسوف لا تجد مكاناً لها بين حركات القرن العشرين الجامحة . إن آراء عزام من المحتمل أنها تمثل دون غيرها المعالم الحقيقية السائدة للروح الوطنية العربية حتى في الجامعة .

وبما أن الجامعة العربية ليست مؤسسة رجعية متعصبة متطرفة فهي بالضرورة «رابطة عربية» . لقد ميز الأستاذ «جب» بين ما سماه القومية العربية المعتدلة وبين الرابطة العربية التي وصفها بأنها « فكرة تقوم على التعصب والجهل وهي قوة خطرة » . ولكن هذا التمييز لا يقوم على أساس ثابت ، لأن في كل حركة تجد أفراداً وتجد فرقاً يسوقها الجهل والتعصب والاعتداء ، إلا أن الطبيعة الأصيلة لكل قومية عربية لا تسمح ، ولا تساعدها مقوماتها ، على قبول التعريف الذي أورده الأستاذ جب لها . فليس هناك سبب معقول يفسر لماذا يكافح العرب من أجل حرية ووحدة العالم العربي ولا يكافحون من أجل حرية ليبيا . ولقد صار لزاماً على الجامعة ، سواء بدستورها الخاص أو عن طريق القوى التي تسيرها ، أن تعد نفسها الضمان الحرية للعالم

العربي بأسره . إن هناك اختلافا بين الوطنيين العرب حول بعض المسائل العربية الهمة ، إلا أنه ليس بينهم عدم اتفاق بشأن الأهداف الأساسية التي تخص كل العالم العربي من الأطلنطي إلى الخليج الفارسي والتي تهدف إلى توحيد كل مقومات المجتمع العربية — الاقتصادية والاجتماعية والفكرية — توحيدا لا يقل قوة عن التوحيد السياسي .

ولكن قولنا بأن القومية العربية ، كما تطورت في الجامعة ، عبارة عن « رابطة عربية » يجب أن لا يفهم على أساس أن هناك علاقة أو تشابها بين هذه الرابطة وبين بعض الحركات الأخرى ، كالرابطة الجرمانية والرابطة السلافية ، لأن هناك اختلافا أساسيا بين التطورات العربية السياسية والتطورات الأوربية ؛ فالقومية في أوربا تبنى على مفهومين : تبنى أولا على أساس أن الدولة ورثت تقاليد المجتمع القانوني الرومانيين ، وتبنى ثانيا على تشابه الجماعات التي هي من سلالة واحدة . في حين أن القومية العربية لا تقوم على كلا المفهومين . فالمجتمع العربي ، من جهة ، لا يقوم على التقاليد الرومانية — الإغريقية ؛ فهو بالتالي لا يحمل فكرة عن دولة قوية ذات سيادة ، وهو من الجهة الثانية لا يتألف من جنس واحد ، بل من جماعات متباينة جنسيا ودينيا اجتمعت سوية حول ثقافة عربية مشتركة وفكرة عالمية واحدة . ولذلك فمن المجازفة أن نعقد المقارنة بين التقاليد السائدة في الأقطار العربية وبين تلك الموجودة في المجتمعات الأوربية .

إن الفشل في استكناه الخصائص العربية الخلقة هو الذي دفع بكثير من الخبراء الغربيين إلى بخس قيمة قوة الاتحاد العربي . حتى إن وودوت مونتاني أمكنه القول بأن « العراق ليس إلا مجموعة تتألف من أقليات دينية وجنسية ولغوية » ، وهناك ميل عام بين أصحاب النظريات من الأوربيين ، إلى النظر إلى المجتمع العربي بهذا المنظار ، ولذلك فهم لا يعتقدون في إمكان تحقيق وحدة حقيقية بين العرب .

وتبدو الدراسة العميقة والإحاطة بجذور المجتمع العربي ضرورة ملحة ، إذا أردنا أن نتفهم علاقة التكوينات السياسية بالجامعة العربية وبالحركة الفكرية العامة ، وبالتطور الاجتماعي في الأقطار العربية ، وإذا رمنا أن نقدر تقديرا صحيحا مدى عمق جذور فكرة الجامعة العربية في عقول الشعب العربي .

من مجلة The Middle East

(بغداد) فؤاد قزنجي

من أدب السودان :

الفجر الصادق

هذا هو اسم الديوان الذي أصدره الشيخ عبد الله عبد الرحمن الأستاذ بكلية غردون بالخرطوم سابقاً . وقد ضمّن هذا الديوان مجموعة أشعاره التي أنشأها خلال الخمس والعشرين سنة الماضية .

والذي يدرس عاملي الوراثة والبيئة في حياة شاعرنا يستطيع أن يدرك مقدار ما لها من أثر قوي في إنتاجه الشعري ، وفي الفنون التي تعرض لها ، والموضوعات التي تناولها ؛ فصاحب الديوان من بيت دين وعلم ؛ وجده هو الشيخ الأمين محمد الضرير ، أحد رجال الدين الذائعين في عهد اسماعيل وتوفيق ، والذي شغل وظيفة « رئيس علماء السودان » (شيخ العلماء) في أيام جعفر باشا مظهر حكمدار تلك البلاد .

وكان الشيخ الضرير شاعراً وأديباً ، نظم الكثير من المقالات والقصائد عند المناسبات الدينية والوطنية الهامة في حياة البلاد . وأذكر أني قرأت أعداد الوقائع المصرية جميعها في عهد إسماعيل وتوفيق ، فلم أجد من السودانيين من نشر له شيء غير هذا الشيخ ، وكان محرر الوقائع يقدم مقالاته وقصائده بقوله إنها من إنتاج الشيخ « الضرير » .

ومما تميز به الشيخ الضرير أيضاً حبه الوفاء لوطنه وقومه وأصدقائه ومحبيه . وقد ظل على إخلاصه لولي الأمر أثناء الثورة المهدية ، وكتب فتوى نشرها على بني قومه يبطل بها تلك الدعوة . فلا غرابة أن يرث صاحب الديوان عن جده كثيراً من خصائصه النفسية ، وميوله الأدبية والخلقية ، ولا غرو ، وهو ينتمي إلى بيت علم ودين ووفاء ، أن يُشرب في قلبه حب هؤلاء الثلاثة .

وهو قد تربى تربية مدرسية دينية ، حفظ القرآن في صغره ، ودخل قسم معلمي اللغة العربية في كلية غردون ، فتثقف بالثقافة العربية الدينية . وكان جل أساتذته من المصريين الأوائل الذين ذهبوا إلى السودان مدرسين ؛ كالشيخ الخضري ، والشعراوي ، وعبد الرازق ، والنجار ، كما كان من بينهم الأستاذ فؤاد الخطيب (باشا) رئيس وزراء شرق الأردن الآن .

وقد ساعد ما ورثه الشيخ عبد الله من غرام بالأدب وميل ديني ، على أن يتفقه في كليهما أيام تلمذته ، واحترف مهنة التدريس ، مما كان عوناً على قراءة دواوين الأدب ، والتصل بأنواع النشاط في نواحي الحياة السودانية ، على ما بها من قلة وضيق . فصار الأديب المسلم والوطني المتحمس ، يهزه الشعور الديني أو القومي أو العربي ، وتطربه الظلال السودانية ، فيطلق اللسان لشاعريته . ولذلك جاء ديوانه معبراً أصدق تعبير عن عواطف قوية نحو دينه ولغته ووطنه وقومه ، وعواطف يتجلى فيهما الوفاء لهؤلاء الأربعة ؛ فهو يحب من أجل دينه وعقائده ، ويحب من أجل لغته ، ويحب من أجل وطنه ، ويحب من أجل قومه . وهو إذ يكره ، يكره من أجل هؤلاء ، ولكنه لا يعرف العنف ولا الجدل ، وإنما يكره في رفق وعتب ، شأنه في ذلك شأن الصالحين المخلصين .

والتصفح لديوانه يجد به أبواباً خمسة شاملة لكل ما نظم ؛ فهو قد نظم في الإسلاميات ، وفي الوطن ، وفي اللغة حاضرها وماضيها ، وفي المناسبات القومية ، أو المجتمعات القومية وفي الرثاء للأعزين أحياء وأمواتاً . وقلما تخلو قصيدة من قصائده من الجمع بين هذه العناصر الخمسة .

وأكثر إسلامياته في مناسبة أول السنة الهجرية ، وهي مناسبة يحتفل بها إخواننا السودانيون في أنديتهم ، ويتبارى في التحدث عنها خطباؤهم وشعراؤهم . وفي هذه المناسبة تهيجه ذكرى الماضي — ماضي الدين واللغة والوطن — فيطلق يعدد فضائل هذه الذكرى وصاحبها ،

ويأبى حفظ أبناء دينه ولغته ووطنه . نحس ذلك حين يقول :

لعمرك ما النبي – فدته نفسي –
بمنطلق اللسان على البذيّ
أتى بالملـــة السمحاء يدعو
إلى الأخلاق والشرع السويّ

يهاب العالمون به ويبقى — جديداً رغم كرات المضي
إذا ابتهجت بمولده البرايا — فذاك لذكرها سبق النبي
ليذكروا ما آثر صالحات — ومجداً كان في الزمن المضي
زمان المسلمون بكل أرض — أساطين الحضارة والرقي
زمان العلم جانبه منيع — وأنصار الجهالة في هوى
وإذ بغداد من أدب وعلم — تموج بكل وضاح سري

وهو حين يتحسر على الماضي ، ويشيد بذكر الإسلام ورجاله ، يستحث إخوانه وبني وطنه على الاعتصام بالإخاء والتمسك بالأخلاق الكريمة ، لأنه يرى في ذلك إعلاء للدين والوطن . ومن ذلك قوله :

ذكر بهجرة خير الخلق من مضر
محمد مظهر الإسلام ناصبـــه
شباب قومي ، وأقدار الندى لكم
مني أخ صادق الإخلاص عليه
لست المداري أخاه يوم نائبـــة
لا بارك الله في خـــل تداريه
إني إذا صاحب أنكرت خلته
لم ترضني حـــق ألا أداريه
النظر فقدتكم شتى مدارســـه
وأطلتكم نجوما في نواحيـــه
وأرضكم ســـيولا في أباطحه
وأكرمتكم غراسا في روابيه
وأنهلتكم على ورد موارده
وفي محياكم قد رقت واديه

تمسكوا بكريم الخلق ، وازدرعوا
بذر الإخاء ، وشدوا من أواخيه
لا تصبحوا شيعا شتى مذاهبكم
فالخلف من مثلكم صعب تلافيه

وشاعرنا يرى في النهوض باللغة رمزاً للقوة ، ورمزاً للصلات المتينة التي يجب أن تربط شعبه بالشعوب العربية الأخرى ، ويرى أن ضعف اللغة نذير بالاحتلال القوي ، وبه يمكّن الأجنبيُّ نفوذَه . وهو يحذر قومه وينذرهم ، ويهيب بهم أن يعملوا على إحياء لغتهم العربية :

ألا ليت شعري ما دهى العرب إنني
أرى الجو في آفاقهم يتجهم
أكلٌّ بلاد ، غيرهم ، متساند ،
وكل قبيل ، غيرهم ، متقدم ؟
أجل كل قوم قد طاروا في الأنجم
غدوا وصروف الدهر فيهم تحكّم !
أرى [illegible] بالذات رجاله
وتمشي إلى أعلامها تتعلم
بني وطني إني أرى الفساد دائباً
فيالي أدعو للتي هي أقوم
لقد وشّى الله الروابط بيننا
فلا تقصموا ، بالله ، ما هو مبرم
عزيز علينا أن نراها عزيزة
وجاراتها فينا تزيد وتعظم
وإنك بالسودان قوماً تآمروا
على اللغة الفصحى أساءوا وأجرموا
ألا نحن عرب قبل أن تلعب بنا
صروف الليالي والجهول الغشمشم
إذا لم تحسموا داءها ، وهو قاتل ،
نهوضا وفي غير المروءة تدعموا
فعضوا عليها بالنواجـــذ إنها
سلاحكم ، إن تخلعوه هزمتموا

أما عقيدته الوطنية فتتلخص فى أنه يؤمن بالوحدة الطبيعية بين شطرى الوادى ، مصره وسودانه ، ويؤمن بأن الإسلام هو الوطن الأكبر لجميع الشعوب الإسلامية . تسمع هذه النغمة تتردد فى أشعاره فى مناسبات كثيرة . وهى فى كل مرة قوية مؤثرة تعبر عن إيمانه العميق فاسمع إليه وهو يقول عندما زار السودان رفعة على ماهر باشا وزملاؤه :

قدمتم فلا والله ما الفجر طالعاً
بأجمل منكم فى العيون مطالعاً

على الرحب يا وفد الكنانة فانزلوا
نزول كريم الغيث يهبط نافعاً

معالى الوزير إننا نحن أمة
عليها لكم فضل ليساه واقعاً

أليس الذى أشدو به اليوم بينكم
بضاعتكم رُدَّت إليكم بدائعاً ؟

إذا قيل أى الناس ترضون إخوة
مددنا إليكم مستجيب الأصابعا

وهل مصر والسودان إلا عشيرة
على النيل عاشا وشبابها معاً

ولا فرق إلا أنكم فى مصبه
نزلتم وأنا قد نزلنا المنابعا

وفى مصر فاروق العزيز كفى به
لحوزة وادى النيل والدين مانعاً

وفى مقام آخر يقول :

فليس سوى الإسلام من وطن لنا
ولا غــير أهليه أهل صحابا

كفى بقبيل الله جنساً ومذهباً
وبالله ربّاً والكتاب كتابا

ويقول :

أحب بلادى حب مجنون عامر
وأذكر ميثاقاً لها وعهودا

وما يطرى إلا اللطيف وأهـــله
بنفسى آباء به وجـــدودا

هو الدار لا دار سواها لقاطن
ولا غير واديهـــا يطيب ورودا

إذا ضاق من سكانه كل موطن
فمن ما كثيراً لا تضيق حدودا

والشيخ عبد الله شاعر تهتز عاطفته لعمل الخير ، والحث على فعل الخير ، لأنه يرى فى ذلك إرضاء لوطنيته ودينه . وهو فى هذه المواقف مُجيد ، لأنه يعبر عن شعور صادق ، فاستمع إليه يقول من قصيدة عن الملجأ الذى أسس سنة ١٩٣٧ بأم درمان لإيواء أبناء السبيل واليتامى :

وطفل كساه الجوع من طفانه
فأمسى وما يدرى الليل نهارا

وفاه الأسى سهما ، ولو قد رأيته
لراعت من مرأى الظلام قرارا

القاذع وجه النهار ، شوارع
وفى الأرســل يغتاد القاصى دارا

يقول بصوت خافت ، ما أمرّه
يمس ، أغلى فى الخطوب عثارا

فلما تهسود مـــدت له يدى
وأنشأ على شخصه يتوارى

أشرت إليه : أين تذهب يا فتى ؟
فقال وأذرى الدمع : نحن حيارى

ترى ذلك المسكين كيف مبيته
وقد ضاق ذرعاً بالمعاش وجارا

نواماً على غصن ذوى فى اخضراره
وواهاً على ماء النضـــارة غارا

وفى الديوان مدائح ومراث ، ولكنها قليلة ، مما يتناسب مع طبع الشاعر . فهو لا يمدح ولا يرثى إلا من يستحق المدح والرثاء ، ومقياس الاستحقاق عنده هو العمل النافع ، قومياً كان أو دينياً . وفى مدحه ورثائه

يتكلم عن شعور معتدل لا يسرف ولا يتملق .

والقارئ للديوان يدرك أن حياة الشاعر كانت جدية ، وتندر فيها مواقف المرح واللهو والدعابة ، وهو — حتى عندما يداعب — لا يلبث أن يعود إلى جده . قال وهو يودع الأستاذ الأزهري ، عند سفره للعمل في لبنان ، وقد كان زيه شيخاً لابس الزي الأزرق :

يا ليت شعري إن أتى عائداً ... وقد رمى القفطان في زاوية
يطل في بدلته رافلاً ... أم يستعيد الجبة الزاهية
ارجع لنا قد كنت فيما مضى ... شيخاً له أثوابه الضافية
فيا أخا بيروت أنت الذي ... منه البلاد نفعها راجية

ومما يتميز به شعر الشيخ عبد الله أنه قريب المعاني ، سهل الوصول إليها ، لا يحتاج من قارئه إلى تعمق في التفكير ، وغوص لاستخراج هذه المعاني . ولعل هذه الميزة انعكاس لحياة الشاعر البسيطة الصريحة الواضحة ، ولنوع البيئة التي عاش فيها .

والشاعر ينهج نهج القدماء في بدء قصائده بالغزل والتشبيب ، وبكاء الديار أو الترحم على الماضي ، ثم ينتقل من ذلك إلى موضوع قصيدته . وهو في ذلك إن أخذ عليه فقد أخذ على غيره من أمراء الشعر في العصر الحاضر كشوقي وحافظ . وعلماء النفس التحليلي يجدون في هذا النوع من الغزل والتشبيب معنى يميط اللثام عن كثير من رغبات الشاعر المكبوتة . فهل هذا ينطبق على شاعرنا ؟ أو هو مجرد تقليد منه ؟ ومن محاسن قوله :

أماطت لنا ما دونه الشمس زينب ... ولاح لنا منها بنان مخضب
وشمنا وميضاً من ثنايا تخالها ... حصى البرد الوهاج يعلوه حبحب
وحيت فأحيتنا ، ومال بعطفنا ... كلام من الشادي أحلى وأعذب
فأصبحت منشوداً وملت إلى الصبا ... على أن رأسي يا ابنة القوم أشيب
لعمرك ما هاجت غرامي خريدة ... ولا شاقني نحو الغواية مطلب
ولكن وجدا بالفضيلة هاجني ... غناء بآيات هوى وتصب
عشقت التي تدعى الفضيلة إنها ... يقال لها في مذهب الشعر زينب

والشاعر مغرم بالاقتباس من القرآن والشعر والحكم يجيده ويتفنن فيه . من ذلك قوله :

فروا من القريض إليك جنداً ... وساقط محصره المعتقينا
ولا تهنوا فإن هناك قوماً ... إذا مروا بكم يتغامزونا

وقوله :

وشدنا من بيوت الله بيتاً ... توحد فيه رب العالمينا
على الطارق الأشم في بلاد ... أخو الإسلام كان به ظنينا
وأدينا الفروض وكان حقاً ... على الرحمن نصر المؤمنينا

وكذلك قوله :

فما ينطق التاريخ حكماً مسمطاً ... لنا أو علينا لا تضيع الصنائع
وما الحكم في التاريخ إلا وديعة ... ولابد يوماً أن ترد الودائع

وبعد فقد أطلت في عرض هذا الديوان ، لأنه بضاعة سودانية من نوع قليل وروده . والديوان جدير بأن يقرأه كل أديب ، وجدير بأن تضعه وزارة المعارف في مكتبات مدارسنا ، حتى يرى تلاميذنا ثمرة طيبة من ثمرات الأدب السوداني ، ويطالعوا فيه عواطف صادقة لأخ وفي .

عبد العزيز عبد المجيد

٢ - نور الدين محمود

مسلم عظيم

وكان مركز نور الدين في حلب بين المسلمين إلى شرقه والنصارى إلى غربه، فيما يحتاج إلى مهارة كبرى في سياسة الأمور، وكان قد قرر في نفسه أن يكون صديقاً للمسلمين أبداً حرباً على النصارى أبداً، ولم يكن ذلك بالهين الميسور، لأن المسلمين إلى شرقه لم يكونوا خيراً من النصارى أو آمن جانباً، بل كان أخوه سيف الدين يبدي من مظاهر العداوة ما لا يبقي للحب والحماسة سبيلا، ولم يكن نور الدين يستطيع أن يمضي في سياسة الحماسة مغمض العين لا يكاد يفطن إلى ما يدبره أخوه، إلا إذا عول على بعض المسالمة، ثم يتردد في أن يكون هو الخاسر في نزاع بينه وبين أخيه، وكان يعوض ذلك بمضاعفة الهمة في حرب النصارى والتكسب منهم، فكانت مكاسبه من الأعداء تعوض عليه خسائره على يد سفهاء قومه.

ومن دلائل فضله وتوفيقه في تحقيق غاياته جميعاً بالفضل وحده سياسته مع أتابكية دمشق التي كان يدير أمورها الوزير الماهر معين الدين أنر، فقد قضى عماد الدين زنكي عمره يحاول كسب دمشق بالحرب والحيلة فلم يوفق، لأن معين الدين لم يكن في نفسه بالرجل السيء أو الفاسد الإيمان، وإنما كان مروعاً يخشى أن يقتله عماد الدين أو يخرب بلده إن هو استسلم له، ولهذا مضى يكايده ويعارضه ويحالف النصارى عليه خوفاً من أذاه، وبهذا استحال على عماد الدين زنكي أن يستولي على دمشق، واستحال عليه كذلك أن يمضي في توحيد المسلمين إلى الغاية المطلوبة، فلما أقبل نور الدين استشعر من خلق معين الدين ما عطف قلبه عليه، فمضى يحاسنه ويهادي من زوجه، بل تزوج ابنته وأصبح الحريص عليه الحاني على مصالحه،

فلم يكد معين الدين يطمئن حتى انقلب على النصارى وأصبح عوناً من عون المسلمين بعد أن كان شجى في حلوقهم، واطمأن أهل دمشق إلى نور الدين وهوت نفوسهم إليه، وبدأت مخاوف معين الدين تظهر من جديد، وخاف أن ينقلب عليه أهل بلده ويغدروا به وينضموا إلى نور الدين، فأخذ يمد يده إلى صاحب بيت المقدس في السر، ويريد أن يحذره، لولا تحير عليه فيه قلب نور الدين، وقد كان هذا مستطيعاً أن يهاجم دمشق ويقضي عليها ويستريح من شرها، فأبت عليه نفسه الكريمة أن يدخل هذا. وكره أن يهاجم مسلماً ليستبسط صليبياً، لم ير إلا القضاء على قوة المسلمين، وكان يعرف بما وهبه الله من ذكاء أن الأمر مع منقلبون يوماً على دمشق، وأن صاحب معين الدين منهم منته يوماً إلى مثل ما يكون عليه العواقب، وكان يشفق من هذا أشد الإشفاق، ولم تكذب ظنونه، ولم يطل به الانتظار.

فما هي إلا شهور حتى أقبلت الحملة الصليبية الثانية، فإذا حلفاء الأمس أعداء اليوم يتطاولون على عهد دمشق وأهلها، وإذا جموعهم تزحف رهيبة ويحصر معين الدين حصراً شديداً، وإذا هذا يستغيث فلا يجد من ينجده ويقيل عثرته، ويقف إلى جانبه موقف الأخ الوفي غير نور الدين! وقد نسي أو تناسى إصراره على الشر والخداع في لحظة كان ينبغي أن لا تنطوي القلوب فيها إلا على الحب والإخاء، بعث نور الدين لعون دمشق بالمال والرجال، فثبت معين الدين ومن معه من أهل دمشق في صفوف الإسلام ثباتاً هزم الصليبيين وردهم على أعقابهم بخسارة ظاهرة، فكأن نور الدين أدرك بالحماسة والود من دمشق ما لم يكسبه منها أبوه بالحرب والحيلة، ولو قد أقبلت هذه الحملة الصليبية الثانية في أيام عماد الدين، لانضم إليها معين الدين وسار مع رجالها لمهاجمة حلب والرها، وتعرضت بلاد المسلمين كلها للخطر الشديد! فأما وقد أقبلت في أيام نور الدين فقد تغير الأمر كله ونجا الإسلام

بفضل نور الدين وفضيلة نفسه . لقد كان فشل الصليبيين في الاستيلاء على دمشق سببا في ارتداد الحملة الصليبية الثانية ، وكان ارتداد هذه الحملة الصليبية بالفشل هو الحد الفاصل بين الدور الأول والدور الثاني من أدوار هذا الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية على أرض الشام ، دور الضياع والتقهقر والخوف قبل هجمة نور الدين ، ودور الهجوم والتقدم والجرأة والثبات في عهد نور الدين وبعده . لقد جنى المسلمون على يد نور الدين أول ثمرة من ثمرات التضامن والإخلاص ، وأيقن نور الدين لن يضع يده في يده أنه آمن مطمئن كسب من الاتفاق على كل حال ، فسارع الناس إليه يحالفونه ويضعون يدهم في يده . فأما الصليبيون فقد دوخوا وبدأت ريح الفشل تجري في صفوفهم . لقد عاشوا إلى الساعة في بلاد المسلمين معتمدين على ما أصاب المسلمين من تفرق وما كان يخامر قلوبهم من كراهية بعضهم بعضا ، وقد كان النصارى سعداء كل السعادة بأن يروا أمير دمشق خائفا مرتاعا من صاحب حلب ، وكان ذلك يؤنسهم ويثبت أقدامهم ، ويفسح مجال الأمل أمامهم ، أما اليوم فلا أمن ولا أمل في الثبوت ، وهذا نور الدين باسط كفه يؤمن المسلمين ويهبهم باليدين ، وهم يلتفون حوله ويهوون إليه قلوبهم ، وهو ماض يوحد قلوبهم وينظم صفوفهم ويعدهم المعركة الأخيرة الحاسمة لتخليص الوطن الإسلامي الكريم من العدو الباغي الدخيل . لقد كسب نور الدين بقلبه الكريم للإسلام ما لم يكسب أبوه بسيفه الرهيب .

ثم اتجهت أنظار نور الدين نحو أنطاكية ، ولم تكن بالإمارة الضعيفة ولا الحصن اليسور ، ولو كان نور الدين يبغي الكسب على أي حال لوجه قواته نحو دمشق ، فقد كانت في كفة لا تكاد تستطيع مقاومة ؛ ولكن نور الدين انصرف عنها ومضى ينازل عدوا خطرا هو ريموند الطولوشي صاحب أنطاكية ، وملأ الحماس قلوب المسلمين ، فمضوا في جيش نور الدين تكاد قلوبهم تقفز من صدورهم فرحا ، ولم يكادوا يلتقون مع العدو عند آنب من بلاد أنطاكية في يونيه سنة ١١٤٨ حتى كروا على العدو كرة حطموا بها قلبه وفرقوا قواه بين أسير وقتيل حتى ريموند نفسه لم يفلت ، وقتله أسد الدين شيركوه بيده ، وكان لذلك رنة فرح كبرى في قلوب المسلمين ، إذ أيقنوا أن ساعة أنطاكية قد دنت ، وأن راية الإسلام سترفرف من قريب على ركن هذا الإقليم بعد غربة القرن قضاه أهله في ظلال الأسر والهوان .

وكان نور الدين يحرص على قواده حرصا شديدا ويبذل الجهد ليمنحهم على أن يصيبوا من مطالب النفس والحياة ما شاءوا يطمعون فيه ، لا يكاد يصرفه عن ذلك شعوره بأن هذا الطمع [illegible] من الانفراد بالأمر والسلطان ؛ ومن أمثلة ذلك موقفه حيال قائده أسد الدين شيركوه ، [illegible] ماهرا واسع المطامع ، وكانت قد [illegible] مرات قبلة بأن تنتقض نور الدين [illegible] من مقاصده ، وكان أسد الدين كرديا وكان الأكراد كثيرين في جيش نور الدين ، ولم يكن من المأمون أن يترك فيهم هذا الطامع خشية أن ينفر بهم ويخرج إلى العصيان ، ثم إنه كان لا يكف يتحدث بمطامعه إلى من حوله ، وكان دائم الإلحاح على سيده نور الدين في ضرورة فتح مصر لتكون له كما كانت لعمرو بن العاص . وكان ظاهرا أنه يسعى في إتمام هذا الفتح لغاية يطويها في نفسه . لقد ظل إلى الساعة يقوم بدور ثانوي إلى جانب نور الدين ؛ كان يقوم معه في عسكره ، وكان هذا يرى به في كل مهمة ويرسله في كل جارية ، وقد حاز شيركوه من النصر شيئا كثيرا ، بل لم يرهب الصليبيين ويوقع بهم الهزيمة تلو الهزيمة أحد مثله ؛ فتاقت نفسه إلى أن يتوج أعماله بفتح جليل يطير به ذكره ويدل عليه فئة كبيرة ، فمضى يقنع

نور الدين أهمية فتح مصر وهونها عليه كما فعل عمرو ابن العاص مع عمر بن الخطاب من قبل. ولم يكن نور الدين يسوف فيها خوفاً من شيركوه، بل لأنه كان يرى أن الساعة لم تحن بعد لمثل هذه الخطوة الواسعة؛ ثم إن أصحاب مصر كانوا مسلمين، ونور الدين لا يفكر في مواجهة المسلمين حتى إذا كانت غزوة إمرى صاحب بيت المقدس في سبتمبر سنة ١١٦٣ لم يبق عند نور الدين شك في ضرورة الاستيلاء على مصر لطرد الصليبيين منها، والحيلولة دون تسرب الصليبيين إليها مرة أخرى، فأذن لشيركوه في المسير، ولم يكد هذا الأخير يتلقى الأمر بالسير حتى خف يقطع الراحل إلى مصر في إبريل سنة ١١٦٤، وأحب نور الدين أن يهون عليه الأمر فجمع جنده وقام بغزوة في شمال بلاد مملكة بيت المقدس ليشغل بها إمرى عن التعجيل بإرسال قواته إلى مصر، وبذلك استطاع شيركوه أن يتم هذا الفتح بعد جهد كبير وحملات ثلاث اشتبكت فيها الحرب بين المسلمين والنصارى على هذا البلد الذي كان الحكم الفاطمي قد هبط به وبأهله إلى حال هي أقرب ما تكون إلى العدم؛ كان الفريقان يتطاحنان على أرضه وهو ذاهل لا يكاد يحرك ساكنا، ولم يظل نور الدين ساكنا طوال هذه الفترة منتظرا نتيجة هذا الصراع العنيف الذي يدور على ضفاف النيل، بل مضى يهاجم خصومه الافرنج واحداً بعد آخر لا يكاد يمر شهور حتى نجده على رأس جنده في ناحية.

وكان من عجائب المقدور أن شيركوه لم يكد يتم هذا الفتح الجليل ويقضي على شاور ويستقر في وزارة العاضد حتى أدركه الموت ولما تنقض ثلاثة أشهر على بلوغه أقصى آماله! عشرون سنة قضاها وهو يحارب في صفوف المسلمين يقود الغارات ويفتح البلاد دون أن يحظى من ذلك كله بإعطاء يعوض عليه بعض ما يلاقيه من جهد، فلما وصل آخر الأمر إلى ما يريد وآن أن يستمتع ببعض الراحة ناداه ربه إلى جواره. فغادر هذه الدار الفانية في الثالث والعشرين من مارس سنة ١١٦٩، وقد حزن عليه مولاه نور الدين حزناً بالغاً، وجعل ابن أخيه صلاح الدين مكانه تعويضا للأسرة عن مصابها في أميرها الكبير.

وقد توفي أخوه سيف الدين سنة ١١٤٩ وترك مملكته في سنجار خالية، ولو أراد نور الدين لوضع يده عليها، ولكنه لم يطمع في هذا الغنم الذي وقع بين يديه. لم يكن كمن عرفنا من الحكام ينقض على ما يخلف إخوته فيختطفه اختطاف النمر الكاسر، بل ذهب إلى سنجار ورتب أمور الإمارة ثم وهبها لأخيه الأصغر مكان أخيه الراحل، وتولى قطب الدين مودود هذا عن كل ما اتصل بالفقيد من تراث وعتاد.

* * *

ومن دلائل كرم النفس التي امتاز به نور الدين موقفه من صلاح الدين؛ فإن مطامع صلاح الدين لم تكن تخفى على أحد من يوم ولايته الوزارة بدلا من أسد الدين شيركوه. وجعل الناس يتحدثون في مجلسه بالوثوب بنور الدين والاستقلال عنه، ولو لم يتدخل أبوه نجم الدين أيوب لخرج صلاح الدين على سلطانه وولي أمره، وكان صلاح الدين يتصرف من أول الأمر تصرف المستقل الذي لا ينوي الطاعة، وقد شجعه على ذلك ما ظهر له من رقة نور الدين وطول صبره وانصرافه إلى منازلة الفرنج، وكان نور الدين يرجو من صلاح الدين معاونته والخروج لحرب النصارى في كل حين لا الانصراف إلى تأثيل ملك وتعزيز سلطان؛ فكان كلما خرج في غزوة سأل عن صلاح الدين وانتظر معاونته، ولكن صلاح الدين كان يتقاعد ادخاراً لقوته أو انصرافاً منه إلى ما كان يدبر، إذ ذاك أهم وأجدى؛ فساورت المخاوف قلب نور الدين، وجعل يلومه ويستحثه ويطالبه بالمال على نحو ما كان عمر بن الخطاب يخاطب عمرو

أن الناس جميعاً خاصمة في أمره الريب. وتسامع نور الدين بما كان آل أيوب يدبرون في مصر، وأنهم بعثوا من يكشف لهم بلاد النوبة حتى يلجأوا إليها إذا وقعت الواقعة بينهم وبين نور الدين، وعرف أن بلاد النوبة لم تعجبهم، وأنهم بعثوا مبعوثاً آخر إلى اليمن ورفقة لهذا الغرض، فأدركه من ذلك خوف مقيم مقعد، وقد كان مستطيعاً السير إلى مصر ونزع صلاح الدين منها، ولم يكن صلاح الدين يستطيع مقاومته لأن أمره كان ناشئاً، وكان أجناده أجناد نور الدين على أي حال، وقد أطال نور الدين صبره وأملى لصلاح الدين وآله، شأنه في ذلك ما جرى عليه مع غيره من المسلمين. ولكن مع ذلك الخوف كله لا يزال يوقر صلاح الدين ويرسل إليه الخلع حتى يؤنسه ويصرف الخوف من نفسه، كما فعل بمعين الدين أنر، وزير دمشق، وظل الأمر بينهما على ذلك حتى مات نور الدين.

كان نور الدين يحلم بالدولة الإسلامية الواحدة، وكان يرجو أن يحققها الله على يديه، وكان شديد الشعور بما تتعرض له البلاد الإسلامية من الأخطار إذا ظل الصليبيون مقيمين فيها، تساعدهم الأحقاد بين الحين والحين، ويوسعون أملاكهم كل يوم شيئاً، ولو كانت وجهته توسيع ملكه على أي نحو لترك الصليبيين وشأنهم كغيره من أمراء المسلمين في عصره، ولو انصرف إلى صغار أمراء المسلمين وشغل نفسه بالاستيلاء على ما بيدهم من بلاد لكسب من ذلك كثيراً، إذ أن قوى بعضهم كانت لا تزيد على مائة فارس، وكانت حصونهم هينة يسيرة تفتح له أبوابها إذا مر بها، فلا يفتك بأحد من أهلها ولا يطمع فيما بيده، بل كان يجمع أجناده ويتوجه بقوته نحو الإمارات الصليبية، ولا يزال يدأب في حربها حتى تستسلم وتعود إلى راية الإسلام؛ وقد رأينا مصابرته لمعين الدين أنر، صاحب دمشق وصبره على صلاح الدين، ورأينا كذلك عنفه في حرب أنطاكية وإلحاحه عليها بالحرب، لا يبغي من وراء ذلك إلا خير المسلمين وجمعهم إلى لواء النصر من جديد؛ وقد ورث من أبيه عماد الدين إمارة حلب صغيرة يتهددها الصليبيون من غرب ومن شمال، فما زال حتى أمنها من ناحية الشرق، ثم انصرف بعد إلى أنطاكية حتى استولى على معظم بلادها وبسط سلطانه على دمشق، ثم استخلص مصر من الفاطميين؛ وبهذا أصبحت أملاكه تمتد من الموصل إلى مصر قطعة واحدة، فتفصل بذلك إمارة بيت المقدس الصليبية عن أنطاكية وطرابلس، وأصبح مصير الصليبيين في الشام رهناً بضربة توجه إلى بيت المقدس وتقضي على الدولة اللاتينية فيها، فلا يبقى لهم بعدها إلا شريط ضيق من الأرض على ساحل الشام؛ ولم يلجأ نور الدين في تكوين هذه الوحدة إلى غدر أو خديعة، ولم يهبط بخلقه ودينه إلى ما كان يهبط إليه أنداده ومعاصروه من سلاطين زمانه؛ إنما ظل طوال أيامه مسلماً فاضلاً شريفاً، لا يكاد الإنسان يستدرك عليه شيئاً من التلون أو الإعنات.

وكان صلاح الدين خليفته، ورث عنه فكرة الوحدة الإسلامية، فحافظ عليها ما استطاع، وأخذ عنه فكرة القضاء على بيت المقدس فأنفذها بعد موت نور الدين بثلاث سنوات فقط، فنصر الله المسلمين في حطين، وأعقب ذلك ما نعرفه من عز للإسلام وأهله، ويرجع الفضل في معظم ذلك إلى هذا الرجل الكريم نور الدين محمود.

توفي نور الدين عن ست وخمسين سنة في دمشق في مايو سنة ١١٧٤ في لحظة اشتدت فيها مخاوفه من ناحية صلاح الدين، حتى ليزعم المؤرخون أنه كان يستعد لحربه، توفي قبل أن يرفع سيفاً في وجه تلميذه ونائبه صلاح الدين العظيم، فكأنما اصطفاه الله إلى جواره في ذروة مجده وفي لحظة تطالع تتسلم الزعامة منه فيها زعيم آخر ذخره الله لإتمام الرسالة الكبرى، تحرير بلاد المسلمين وجمع المؤمنين إلى لواء واحد عزيز منصور.

حسين مؤنس

قصة الأسبوع

الصورة البيضاوية

للكاتب الأمريكي الكبير إدجار ألن بو

« ولد هذا الكاتب عام ١٨٠٩ في مدينة بوسطن من والدين احترفا مهنة التمثيل، ونشأ في عهد كان الأدباء فيه يتشاءمون من أسر فنية محترمة، ويعتبرون فيه الاشتغال بالأدب هواية ولذة عقلية. وماتت عنه والده معدمين، فورث عنهما نفساً قلقة وإحساساً مرهفاً، وشعوراً بالبؤس والضعة، كما أخذ عنهما روحاً فنية وخيالاً خليقاً. فتكفله ثري له وأتاح له فرصة التعلم، فدخل الجامعة، ولكنه أدمن الخمر والميسر، فاضطر إلى تركها. والتحق جندياً بالجيش ولكن وصيه عمل على إقالته من الكلية الحربية، فطرد منها وعاش زمناً فقيراً مشرداً. وكان يكتب القصص وينظم الشعر. فنال جائزة في مباراة أدبية نظمتها إحدى المجلات، وأصبح المحرر الأدبي لتلك المجلة، فذاع اسمه وأقبل الناس من أجله على قراءة المجلة، فتزوج واستقرت حياته زمناً. ولكنه كان يقبل على الخمر والمخدرات حين تضطرب نفسه وتثور أعصابه. وكان كثيراً ما يضايقه أن يكسب صاحب المجلة الكثير ولا ينال هو إلا القليل. فاختلف مع صاحب المجلة وترك العمل، وماتت زوجه فساءت حاله وأصبح حطاماً يعيش مخموراً مخدراً. ثم صحا من غفوته ذات يوم فآلى على نفسه ألا يقرب الخمر والمخدرات، ولكنه أخطأ مرة وتناول الخمر مجاملة. فرجع إلى سابق حاله، فمرض ومات وهو في الأربعين.

« وكان قصصياً شاعراً، امتاز بمخيلة مخترعة تجنح للغريب، فتختار أعنف الأحاسيس والعواطف، وأحلك الصور والأخيلة، وألم بعالم الأسرار وصور الجنون والموت. ووضع قصصاً قصيرة خالدة استوحاها من أحاسيسه وعواطفه وتجاريبه الخاصة، لا من واقع الحياة؛ كتبها في أسلوب يمتاز بقوة التعبير وفصاحة البيان والقدرة على الإفادة في الرمز والمجاز والاستعارة. وهو موفق في ألفاظه ومعانيه، تتدفق تلك الألفاظ مختارة منتقاة تدفق السيل في سهولة ويسر. ويعتمد في تأثيره على الآثار الحسية للألوان والأصوات، والصور الجميلة الشرقية والقوطية. ويبدو في أحسن حالاته حين يحل لغزاً عقلياً، وحين يصور خلجات عاطفة معينة أحسها هو. ويعتبر أول من وضع أسس فن القصص البوليسي ».

(المترجم)

كان الجرح الذي أصبت به جرحاً بليغاً. فخاطر خادمي بالدخول بي إلى قصر صادفه حتى لا أقضي الليلة في العراء. وكان القصر مهجوراً، ويقع عابساً في جلال بين جبال الأبنين. ويبدو أن أصحابه قد تركوه حديثاً على أن يرجعوا إليه سريعاً. فنزلنا في أحد الأجنحة النائية وأصغرها حجماً، وهو يتفرد بأحد الأبراج النائية. وكان جناحاً زاخراً بالرياش الرائعة وإن تقادم عليها العهد. وقد علقت على جدرانه طنافس وأسلاب متعددة الألوان والأشكال، كما علق عليها عدد كبير من الصور الحديثة الرسم، وضعت في إطارات عربية مذهبة، وصنعت في دقة ومهارة. ولعل ما استثار اهتمامي العميق بهذه الصور هو ما كنت أستشعره من إرهاق وتعب. فطلبت من خادمي أن يغلق نوافذ الحجرة، فقد أقبل الليل، وأن يشعل ألسنة الشمعدان الطويل القائم عند رأس الفراش، وأن يفتح الستائر المشرعة من المخمل الأسود التي تحيط بهذا الفراش، ورغبت في هذا حتى أستسلم للراحة وإن لم أنم، فتساعدني هذه الراحة على تأمل الصور، وقراءة مجلد صغير وجدته على الوسادة، يصف هذه الصور وينقدها.

فقرأت وقرأت. وجعلت أتفحص تلك الصور بعيني وبكل جوارحي. ومرت الساعات الرائعة سراعاً، وانتصف الليل العميق، وضايقني موضع الشمعدان، فوضعته في

مكان ينسكب منه نور أشد ضياء على الكتاب .

فأنتج هذا العمل أثراً لم تكن متوقعة ، فقد سقط ضوء الشموع على جانب من الجدار كان في ظل عمود من عمد الفراش . فرأيت صورة لم أكن قد رأيتها من قبل ، وكانت صورة لفتاة صغيرة كانت تنضج ، فألقيت عليها نظرة عجلى . ثم أغمضت عيني ولست أدرى لماذا فعلت ذلك ، وفكرت في السبب وأنا مغمض العينين ، فخيل إلى أنها حركة غير إرادية لأكسب الوقت ، فأفكر وأتيقن من أن خيالي لم يخدعني ، وأهدئ من ثورته وأخضعه حتى تكون أصدق نظرة وأرجح حكماً . ثم بعدت أتفحص الصور بعد ذلك .

(والآن لا يداخلني شك فيما أرى) ، فقد بدد الضوء الأول الذي وقع على الصورة من الخمول الذي جعل يستولى على حواسي ، فأيقظني ثانية . وكانت الصورة تمثل فتاة صغيرة يبدو منها رأسها وكتفاها ، وكان الإطار بيضاوي الشكل فاخر الصنع ، ولم يبرز فيه جمال التقاطيع ولا دقة الرسم . ولا أعتقد أن خيال الرجل هو الذي خدعني إلى أن ظن الرسم إنساناً حياً ، فأطلت التفكير باحثاً عن السبب ، وجعلت أتفحص الصورة ، وأديم النظر إليها حتى أعرف ما استثار مشاعري ، ثم ألقيت برأسي على الوسادة ، وأحسست بالراحة عندما اكتشفت أن سحر هذه الصورة يرجع إلى الصدق في التعبير الذي يبدو على وجه الفتاة . ووضعت الشمعدان في مكانه الأول وأنا أستشعر الاحترام والمجد . فحجبت ما سبب اضطراب نفسي . ثم أمسكت بالمجلد الذي يتحدث عن الصور وتاريخها ، فقرأت ما يأتي :

« كانت عذراء ذات جمال نادر ، تنبعث منها الحياة كأنها النشر الحلو ، وبدا الشر في الوقت الذي رأت فيه الفنان وأحبته وتزوجت منه . وكان الفنان رجلاً عاطفياً جاد التفكير ، يغلي حياة ونشاطاً ، وهب نفسه للفن وتزوج منه . وكانت عذراء ذات جمال رائع ، يفيض منها الضياء والابتسام ، ويشع منها العطف والحب ، مرحة الأعطاف كأنها الغزال ، ذات روح منطلقة حرة . وما كانت تكره في الحياة غير الفن لأنه ينافسها في حبيبها ، ولم تكن تحتمل رؤية لوحة الألوان ولا أدوات الرسم التي كثيراً ما صرفت زوجها عنها . ودخلها الرعب والفزع عندما تحدث إليها زوجها ذات يوم عن رغبته في رسم صورة لها . ولكنها كانت زوجاً طيبة ومطيعة ، فجلست في الظلام منها عدة أسابيع في حجرة من حجرات البرج العالية المظلمة .

« ولم يكن بهذه الحجرة غير طاقة صغيرة يسقط منها الضوء على لوحة الرسم . وأما الفنان فقد وجد المجد في عمله ، وكان رجلاً عاطفياً متقداً ، ضائع في خيالاته وأوهامه ، حتى إنه لم يعد يرى أن الضوء الذي كان يسقط باهتاً من الطاقة قد أضعف صحة زوجه وأخمد روحها . ولاحظ الجميع ذلك إلا هو فلم يلحظ شيئاً . وأما هي فقد ظلت تبتسم ولا تشكو مع كل ذلك ، لأنها رأت أن الرسام الشهير قد أصابه مس الحماسة ، ووجد لذة وسروراً في عمله ، وظل يعمل ليل نهار لا يستريح ولا يهدأ حتى يستعجل من أحبته وزوجته ، فصارت تذوى في سبيله وتضمر ، وقال من رأى الصورة حينذاك إنها خلق رائع ، ودليل على عظمة الفنان ومهارته في استعمال وسائله وأساليبه ، كما أنها كانت دليلاً على حبه العميق لزوجه . تلك التي اختارها فأحسن الاختيار .

« وشارفت الصورة على النهاية ، وأصبح نادراً ما يحول بصره عنها لينظر حتى إلى ملامح زوجته ، ولم يكن يدرى أن الطلاء الذي يضعه على اللوحة إنما يأخذه من وجه تلك التي تجلس أمامه . ومضت الأسابيع ، ولم يبق من عمله إلا لمسة واحدة من ريشته يضعها على الفم ، وأخرى يضعها على العين . فاضطربت روحه كما يضطرب اللهب في المصباح . ثم قام المسكين ، ووقف مأخوذاً أمام لوحته باهت اللون يرتعش ويصيح : إنها الحياة نفسها . ثم التفت إلى زوجه فوجدها قد ماتت » .

حسن لطفي المنفلوطي

بين المسموع والمقروء

طلقت فتزوجت

إن الزواج غاية في الغايات، يهدف إليها الناس، بل هي غاية الغايات في عرف الحياة ومطالب الطبع والطبيعة. والرجل منا، والمرأة، تطلب الزواج وترجو له أن يدوم. وهو كثيرا ما يتصل، ولكنه كثيرا أيضا ما يحوله الدهر فينقطع. وهو ينقطع بالموت حينا، وبالخلاف فالطلاق أحيانا. وودّ الإنسان لو عرف بالإحصاء، كم يتصل الزواج في مصر وكم ينقطع، ولكن بلادا غير مصر، تُعنى بالإحصاء، وتصر على كمّه، تنبئنا بأن المدنية الحاضرة، والظروف الحاضرة، لا تعين على ثبات الزواج كثيرا. ففي أمريكا أحصوا أنه من كل ثلاث عقد تعقد يعقدها الزواج، يحل الطلاق منها عقدة. ومن آثار هذا الطلاق في نفس الناس، والبحث، أسئلة كثيرة تقصد إلى معرفة أكثر ما يعرف مما هو وراء الستار في هذه الأحوال.

ومن أمثلة ذلك، كم من الفرص تكون للطالق أو للطالقة أن يتزوجا من جديد. وفي هذا يقول قوم الإحصاء في الولايات المتحدة: إن الفرصة تتاح لسبعة من كل ثمانية، فلا يمر على هذا أو هذه سنة فسنة حتى تجد شريكا في الحياة جديدا.

وتقل هذه الفرص وتزيد حسب الأحوال. فالمرأة التي مات زوجها لا تكثر فرصها كثرة كبيرة، ولكنها على كل حال تكون أكثر مما إذا لم تكن تزوجت أصلا. والرجل الذي فقد زوجته بالطلاق أو بالموت تأتيه فرص في الزواج كثيرة. والفرص عادة تكثر مع السن الصغيرة، ولكن الرجل الذي قد بلغ حتى الخامسة والأربعين تقبل النساء عليه بالكثرة التي يقبلن بها على الأعزب في الثلاثين.

والمرأة المطلقة، إذا بلغت الخامسة والأربعين، لا تأتيها فرصة الزواج إلا إذا حدثت معجزة، ولكن غير ذلك، المرأة التي طلقت في الخامسة والأربعين، فقد تدل الأرقام على أن لها من فرص الزواج مثل ما للمرأة التي ترملت في الثالثة والثلاثين، ومثل ما للعانس إذا بلغت الثلاثين. ولا يؤثر في ذلك نصيب المرأة من جمال أو نصيبها من مال.

والزواج من بعد زواج أقرب إلى الرجال منه إلى النساء في عمومه، وكثيرا ما يكون هذا بسبب اختلاف موضع الرجل وموضع المرأة التقليدي في المجتمع. فالمرأة التي ترملت ولها أولاد، يعد الرجل أولادها حملا ثقيلا. أما الرجل الذي ترمل فقد تقبل عليه المرأة، لأنه رجل قد هدأ واستقر، واعتاد أن يحتمل فلا ينوء بالحمل على ظهره، وهي تحسب أطفاله ورعايتهم تكسب منه الحمد والبر اللائق بالرجل. وتغذية الأطفال الذين تعهدت أمومتهم هي في العادة عند المرأة لذة، ولها فيها تحكم الطبع الأول.

ويقول الثقات إن الذي تعوّد ما يعطيه الزواج من راحة ونعيم ومن صحبة، يعز عليه أن يفقد هذه الراحة وهذه الصحبة، وهو يسعى دائما أن يعود وتعود. ومن أجل هذا كان العود إلى الزواج، حتى ممن ظنوا على اليأس أن لا تكون عودة.

على أن العود إلى الزواج تكتنفه مصاعب.

ومن تلك المصاعب ذكرى الزواج الأول، وما كان فيه من خيبة. ومن مصاعبه وجود الأطفال. فقد تقبل الأم الجديدة على أطفال الرجل، وهي ليس لها أطفال. فإن هي عقمت بطنها فهنا يكون خيرها وخير من ترعى. وإذا هي لم تعقم، فنظرها إلى الأطفال يحببها أن يكون لها مثل هؤلاء، فإن فاتها من ذلك فائت أحست بالفشل، وبالأسى عما تصبو، وحلت في قلبها الضغينة. وإن هي أتيح لها الولد تحيرت في بلوغها الإنصاف الكامل، لولدها ولولد غيرها، هذا إذا هي طلبت الإنصاف، فمن النساء من يغرن حتى من الأموات.

تزوج محام ببلد صغير ، ثم ماتت زوجته عن ابنة صغيرة . وعاد الرجل فتزوج . وجاء يوم علّقت فيه الزوجة الجديدة صورة الزوجة الماضية على الحائط في حجرة الجلوس . وجاءها صواحبها ، فاستغربن لذلك صنعت . ولكن الزوجة قالت في بساطة : إن بنتي هذه لا تذكر أمها الحقة ، وأنا أريد أن أذكرها بأمها الأصيلة ، لتعلم أنه كان لها يوماً أم رائعة جميلة .

قالت صواحبها : أفلا تنكر هذه الصورة عليك صفاءك ، وهي تنظر إليك هكذا من فوق هذا الحائط صباح مساء ؟

قالت المرأة : لا . أبداً . تقصدن الغيرة ؟ ولكن كيف يغار الحيّ من الميت ؟

ولكن الواقع أن الحيّ يغار من الميت ، فهكذا الكثيرات من النساء . وهذه المرأة كانت في النساء غير كثيرة الأمثال .

إن الضرّة الحية ، كالضرة الميتة التي تعيش في أذهان الأحياء ، تنغص سعادة البيت الجديد بأشباح الأمس والأول ، يتزوجان من بعد زواج . لابد لهما من حكمة وحنان ، وصبر أيوب ، ليجتازا الأزمات التي تثيرها الأطفال في بيت ليس الأب فيه أباً كاملاً شاملاً ، أو ليست الأم فيه أماً كاملة شاملة . ولكن كل هذا يسهله الثقة المتبادلة ، والحب المتبادل ؛ الحب يبذل بعضه لزميل الزيجة ، ولكن يبذل أكثر لقبول هذه الزيجة ممن فقدوا الآباء أو الأمهات .

على أنه حتى مع غير الأطفال ، قد يعكر الزيجة الجديدة أطياف من الماضي لا تريد أن تزايل ، ويعين على إحيائها رقة في المرأة أو حمق في الرجل .

تزوج رجل لأول مرة بامرأة مطلقة . ولم يكن قلبها قد فرغ كل الفراغ من زوجها السابق . وهل تفرغ القلوب هكذا بغتة بعد عشرة السنين ، فكانت لا تفتأ تذكر ماضيها معه . وتعلقت بالذي يدور في خلدها فأسمعت . وشجعها سكوت زوجها على الزيادة حتى صارت الزيادة عادة .

فلما ضاق زوجها بما يسمع من محامد من حل هو مكانه ، ومن قيمه وكفاياته ، ولم يُرد أن يردّ الجميل إساءة بتاتاً مصارحة ، عمد إلى ذكر أمه ، فأخذ يذكرها لزوجته في اليوم عشر مرات ، ويذكر فطائرها اللذيذة ، وطبيخها الشهي ، وما كانت تصنع لابنها من جميل الثياب . وفطنت الزوجة إلى مس زوجها ، وفي سرعة البرق سكتت عن زوجها السابق فلم تذكره أبداً . وسكت الرجل عن ذكر أمه ، وطابت العيشة واستقام الحال .

إن افتقاد الزوج ، بالطلاق أو بالموت ، بلية لا شك فيها . والزواج الجديد من دونها محسوبات . ولكنها محسوبات تستأهل كل ما يبذل الرجل ، وتبذل المرأة ، في تخطيها من جهد . فهذه الدنيا لم تخلق ليسير الرجل فيها وتسير المرأة ، وحده أو وحدها ، إلى آخر الطريق . والذي يحاول أن يسير طريق الدنيا كله وحده ، سيجد فيه آخر الأمر الوحدة ، وبعد الوحشة ، في وقت ، إذا هو طلب فيه الرفيق لم يجد . أو على الأقل عز الرفيق الموافق . والذي يتزوج من السابقين ، تعرفه على السنين . والألفة لا تكون بغتة ، ولا بد لها من مضي يذكره الأليف ذكر الشيء الجميل .

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

الإدارة — ٩ شارع الكردادي
تليفون — ٥٦٢٦٩
القاهرة

صمت...!

الليل يذبل بين أحضان الصباح الناضر
والكون يهوي في ثنايا الفجر حلم الشاعر
والزهر ينقل الحنين إلى الضياء الزاهر
يرنو إلى الدنيا وودعتها بطرف حائر

***

والطير في عش السكينة هادئ... منتشٍ
غافٍ على مهد الأمان والسعادة يحلمُ
قد ألبس الشفق في صمت فلا يترنم
أتراه كان مع الخيال كما يشاء الحلم؟!

***

وفراش الوادي يحوم فوقها طيف السكون
صمتت الطيور بها فرددت الأزاهر والغصون
لحن الكآبة والأسى المكبوت في شجون
خافت من الصمت الرهيب فأرسلت تلك الشجون

***

وهناك عند نهاية الوادي المعرش بالشجر
في مهجة الروح الكئيبة بين أدغال البكر
أرسلت نفسي خلف أركام الروابي والصور
ووقفت أبث للطبيعة كل آلام البشر

***

يا طير يا أزهار يا لحن الربيع الناضر
يا وحي آمالي وفيض مراحلي ومشاعري
يا رمز أيامي الجديدة في شبابي الثائر
قدست من روح يحوم على خيال الشاعر

***

كم مرة صمت أمام سير الكآبة في دمي
وترنحت نفسي بديجور الحياة المظلم
وشعرت أن دمي تضجر من وجودي المتم
ووقفت أنشد للوجود كآبتي وتألمي

***

لا الشمس آلمها بكائي ... ولا القمرُ
لا الطير ملَّ من الغناء ولا الشجرُ
حتى سئمت من الوجود وضقت من سوط الكدر
وطفقت أنفث كل أشجاني فيبتسم القدر

***

أرواية حيك القضاء فصولها للبائس
صورتِ للاشي في محيط الصمت والمطمع الأيبس
وصعدت من وادي الحياة وضقت من سجن السنين
أبوابه الخرس بهول الصمت: ماذا تضمرين؟

***

... نفسي ... وشباب الفيافي قد غارت قواه
قلبي تهدهده السكون ووارت الدنيا رؤاه
لا الحب أيقظه ولا انفتحت للنور مقلتاه
أتراه ينهي عمره المنكود في شرك الحياة

غائب طعمة فرمان



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر